

مجاز القرآن

(149) سبحانه يضل عن الإيمان ، وقد قامت الدلائل على أنه سبحانه لا يفعل ذلك لأنه قبيح ، وهو غني عنه ، وعالم باستغنائيه عنه ، ولأنه تعالى أمرنا بالإيمان وحبنا إليه ، ونهانا عن الكفر وحذرنا منه ، فوجب إلا يضلنا عما أمرنا به ، ولا يقودنا إلى ما نهانا عنه ، وإذا لم يكن ذلك محمولا على ظاهره ، فاحتجنا إلى تأويله في الوجوه التي قدمنا ذكرها ، فهو متشابه ، لأن موقفه من صفة المتشابه إلا يقتبس علمه من ظاهره وفجواه ، فوجب رده إلى ما ورد من المحكم في هذا المعنى ، وهو قوله تعالى : (فلما زاغوا أزاغاً) (قلوبهم) (1) . قال الشريف الرضي " فعلمنا أن الزيغ الأول كان منهم ، وأن الزيغ الثاني كان من الله سبحانه على سبيل العقوبة لهم ، وعلمنا أيضا أن الزيغ الأول غير الزيغ الثاني ، وأن الأول قبيح إذ كان معصية ، والثاني حسن إذ كان جزاء وعقوبة ، ولو كان الأول هو الثاني لم يكن للكلام فائدة ، وكان تقديره : فلما مالوا عن الهدى أملناهم عن الهدى ، فكان خلفا من القول يتعالى الله عنه ، لأن الكفر الذي حصل في الكفار الذين وصفهم سبحانه بميلهم عن الإيمان ، وإزاغته تعالى لهم إنما كانت عن طريق الجنة والثواب ، وأيضا فإن هذا الفعل لما كان من الله سبحانه على سبيل العقوبة لهم ، علمنا أنه من غير جنس الذي فعلوه ، لأن العقوبة لا تكون من جنس المعصية إذ كانت المعصية قبيحة ، والعقوبة عليها حسنة " (2) . فالشريف الرضي في رده المتشابه إلى المحكم ، قد حمل معنى الإزاغة اتساعا على معنى الجزاء والعقوبة كما هي الحال في قوله تعالى : (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم) (3) . وكقوله تعالى : (وجزاءُ سيئَةٍ سيئَةٌ مُثلُها . . .) (4) . (1) الصف : 5 . (2) الشريف الرضي ، حقائق التأويل : 23 / 5 وما بعدها . (3) البقرة : 194 . (4) الشورى : 40 .